ISSN: 1812-0512 (Print) 2790-346X (online)

Wasit Journal for Human Sciences

Available online at: https://wjfh.uowasit.edu.iq

Original article

Character and Place Between Dissonance and Belonging in Contemporary Iraqi Short Story: The Stories of "Ikhtifaa" (Disappearance) by Ismail Sakran: A Case Study

Muhammad Hassan Abbas AL-Zaidi

Department of Arabic Language / College of Arts / Wasit University

***Correspondence author*:** zaidiiraq1973@gmail.com

Received:25 **March** 2026
Accepted: 21 **April** 2026
Published: 01 **May** 2026
***DOI*:** https://doi.org/10.31185/wjfh.Vol22.Iss2.1807

1812-0512 /© 2026 The Author(s). Published by Wasit Journal for Humanities Sciences, Wasit University. This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/).

***Cite*:**
AL-Zaidi, A. P. D. M. H. A. (2026). Character and Place Between Dissonance and Belonging in Contemporary Iraqi Short Story: The Stories of "Ikhtifaa" (Disappearance) by Ismail Sakran: A Case Study. Wasit Journal for Human Sciences, 22(2). https://doi.org/10.31185/wjfh.Vol22.Iss2.1807

ABSTRACT

The significance of space in narrative texts stems from its role as a domain that encompasses both personal experience and events, while also contributing fundamentally to the artistic structure of literary work. From this perspective, the aesthetic qualities that narrative space imparts to the text can be observed through the diversity of its artistic possibilities. Accordingly, space emerges as an active element in narrative discourse, extending its influence across multiple semantic trajectories and carrying psychological, social, and symbolic dimensions. In this context, the character—conceived as a dynamic element—becomes a reflection of the tension between the spaces with and within which it interacts. This gives rise to a notable narrative phenomenon, manifested in the division of the character between two distinct spheres: a space of belonging and a space of estrangement.

Keywords: Estrangement, belonging, character, space

الشخصية والمكان بين التنافر والانتماء في القصة العراقية المعاصرة
قصص "اختفاء" لإسماعيل سكران اختيارًا

أ. م. د. محمد حسن عبّاس بخيت الزيدي
قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة واسط

المُستخلص

تتبع أهمية المكان في النصوص السردية من كونه فضاءً يحتضن التجربة الشخصية والحدث من جهة، ويسهم بصورة جوهرية في تشكيل البنية الفنية للعمل الأدبي من جهة أخرى، ومن هنا، يمكن ملاحظة الخصائص الجمالية التي يضفيها المكان السردي على النص عبر تنوع إمكاناته الفنية .

وانطلاقًا من هذه الرؤية، غدا المكان عنصرًا فاعلًا في السرد، يمتد تأثيره إلى مسارات دلالية متعددة، حاملا أبعادًا نفسية واجتماعية ورمزية، وبذلك تصبح الشخصية، بوصفها عنصرًا متحركًا، انعكاسًا للصراع بين الأمكنة التي تتفاعل معها وداخلها، لتتجلى ظاهرة سردية لافتة تتمثل في انقسام تلك الشخصية بين فضاءين: فضاء الانتماء وفضاء التنافر.

الكلمات المفتاحية: تنافر، انتماء، شخصية، مكان

مقدمة:

يبقى المكان متجذرا ضمن شبكة علاقاته المتجددة مع سائر العناصر السردية، سيّما في طبيعته الجدلية مع الشخصية، وتتجلى تفاصيل هذا الأفق المشترك في أسئلة الهوية والعوامل التي تعكس طبيعة الترابط بينهما، إذ يمكن النظر إلى العلاقة بين الشخصية والمكان بوصفها علاقة متحولة، لا تتسم بالثبات أو الاستقرار في كثير من الأعمال الأدبية، بل تتأرجح بين الانتماء والتنافر أو العكس، تبعًا لتطور وعي الشخصية سياسيا وثقافيا، وتأثرها بالظروف المحيطة، بالأخص السياق المكاني، أو نتيجة للتحولات الاجتماعية الكبرى التي تخلق فجوة بين الإنسان ومحيطه.

يهدف هذا البحث إلى تقديم المكان بوصفه عنصرًا سرديًا يحمل رؤية دلالية عميقة، تعكس الأفق الفكري الذي من خلاله يسعى الكاتب إلى مساءلة المنظومة الفكرية وخلخلتها، بما يقود إلى بناء رؤية معرفية أكثر صفاء، وانطلاقًا من هذه الرؤية النقدية صار من الطبيعي أن يؤدي المكان في القصة العراقية المعاصرة دورًا محوريًا في تشكيل البنية السردية، ويسهم في إبراز التحولات التي تطرأ على الشخصية، وانعكاس التوترات الاجتماعية والثقافية التي يعيشها المجتمع.

تكشف ثنائية الانتماء والتنافر بين الشخصية والمكان عن كونها مفتاحا أساسيا لفهم طبيعة العلاقة بين الإنسان والمكان، بما تحمله من أفكار وتطلعات ورؤى في الأدب العراقي الحديث، وصولًا إلى إبراز عمق أزمة الهوية وتشظيها في ظل التحولات التأريخية الراهنة.

يتجنب هذا البحث الخوض في التنظير والإسهاب في تعريف مفهومي الشخصية والمكان وأنواعه، استنادًا إلى وفرة الدراسات السابقة في هذا المجال، ويركز بدلًا عن ذلك على محورين أساسيين: يتناول أولهما، المكان السردي والشخصية: جدلية التكوين والتأثير ، ويناقش العلاقة الجدلية بين الشخصية والمكان بوصفهما ثنائية تتأرجح بين الانتماء والتنافر؛ واهتمّ – على نحو

الاختصار– بالنظريات النقدية حول مفهوم المكان في السرد، ودوره في بناء النص الأدبي وتشكيله، ويعرض كذلك المسار الحياتي والتجربة الإبداعية للقاص الواسطي إسماعيل سكران، وثانيهما: يناقش دور المكان في تشكيل ملامح الشخصية وبناء الهوية، مسلطًا الضوء على تجليات الانتماء المكاني وحالات التنافر، وأثرهما العميق في تشظي الهوية وتحوّلات الشخصية، ، معتمدًا في إثبات ذلك على الأدوات الإجرائية للمنهج الوصفي التحليلي ، لينتهي البحث بخاتمة تتضمن أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث.

المحور الأول:

المكان السردي والشخصية: جدلية التكوين والتأثير

لا يقتصر دور المكان السردي على كونه الفضاء الذي يحتضن داخله الأحداث وتتحرك فيه الشخصيات، ففضلًا عن ذلك يسهم في تشكيل بنية النص وإضفاء أبعاد دلالية عليه، كما يؤدي دوراً في استجلاء الحالة النفسية للشخصيات ويؤثر في سلوكها وتفاعلها مع الأحداث، ويمنح المتلقي تصورًا بصريًا يساعده على الاندماج في العالم السردي.

اهتمّت عدد من النظريات النقدية بمفهوم المكان في السرد، وأبرزت دوره بوصفه عنصرًا أساسيًا يسهم في بناء النص الأدبي وتشكيله، ومن أبرز تلك المقاربات: البنيوية التي اهتمت بدراسة المكان ضمن البنية السردية العامة، باعتباره عنصرًا يتفاعل مع بقية المكونات مثل الزمن والشخصيات، مما أسهم في تحليل وظائفه داخل العمل الأدبي، كما جاءت السيميائية لتنظر إلى المكان بوصفه علامة دلالية محمّلة بالرموز والمعاني التي تتجاوز حدوده المادية، كاشفةً عن أبعاد ثقافية واجتماعية متعددة، فالمكان عنصر حي يُفسّر، ويؤثر في سلوك الشخصية، ويكشف حالتها النفسية (شجاع العاني ، 2012، ص. 244).

إلى جانب ذلك، ركّزت النظرية الظاهراتية على تجربة المكان كما تعيشها الشخصيات، من خلال الإحساس والانطباع الذاتي بالمكان أكثر من شكله الخارجي، كما أسهمت كل من الواقعية ومفهوم الفضاء السردي والنقد الثقافي في توسيع فهم المكان، من خلال ربطه بسياقاته الاجتماعية والثقافية، وبآليات تشكّله داخل النص السردي (ينظر: حميد الحمداني, ١٩٩١، ص. 81)

إلى جانب ذلك كله أدى المكان السردي دوراً في الربط بين الزمان والشخصيات، وامتد ليعكس التحولات التي طرأت على السرد، ولاسيما في القصة العراقية المعاصرة بعد 2003، فقد أصبح مجالًا لصراع الشخصيات وتفاعلها مع واقعها المتغيّر، مما أفرز علاقة متباينة تتراوح بين الانتماء والاغتراب، وأسهم في إعادة تشكيل الهوية الفردية والجماعية داخل النص، وإبراز المكان بوصفه محورًا أساسًا لفهم تحولات السرد والشخصية معًا.

وفي ضوء هذه الأهمية برزت الحاجة إلى دراسة تلك العلاقة، بعدّها أداة لفهم الكيفية التي تريدها الشخصيات وهي تعيش في المكان، وطبيعة الهوية الفردية والجماعية في النصوص القصصية المعاصرة.

وفي ضوء هذا النوع من الخطاب السردي لا تقدم الأمكنة كونها ديكورًا حكائيًا فقط، بل" يحرص كتّابها دائماً على توظيفها بوصفها مساحات دلالية تعيد تشكيل الوعي السردي، وتفضح الأزمات النفسية والاجتماعية والسياسية التي ترزح تحتها الشخصية" (النصير، 2016، ص. 72)، من هنا تتضح أهمية هذه الثنائية في تحليل القصة العراقية المعاصرة بوصفها مرآةً لهوية مأزومة تبحث عن معنى وجودها في مكان لا يحتضنها بالضرورة.

باتت تقنية توظيف الشخصيات وعلاقتها بالمكان في العمل الأدبي، واحدة من أهم عناصر السرد التي صار المؤلف يعبر عن خلجاته بواسطتها، وما يود قوله في بعض القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية ، وبيان تحوّل حسن اختيار الشخصيات وأنماطها، وتوظيف العلاقة بينها وبين المكان، وأضحت مؤشرًا جليًا على مهارة الكاتب، وقدرته في التعبير عن متبنياته، وتأثيره في الآخرين، من هنا صار ينظر إلى بناء الشخصيات وعلاقتها بالمكان، وتنوع أساليب تقديمها للمتلقي، على أنه يمثل نماءً في ظاهرة التجديد في الخطاب الأدبي المعاصر، ولاسيما الخطاب السردي الذي بات يؤثر بشكل كبير في المتلقي.

من هذا المنطلق مثّلت العلاقة بين الشخصية والمكان في السرد بشكل عام، والقص بشكل خاص ، مرآة عاكسة لنقل الواقع الاجتماعي والثقافي الذي يعيشه الإنسان، سواء أكان التفاعل بينهما إيجابيًا (انتماء) أو سلبيًا (تنافرا)، وهذه العلاقة تكشف عن أبعاد عميقة تتعلق بالهوية والاغتراب والانتماء، وهي بطبيعة الحال تجعل من الأدب فضاءً حيًا للحوار بين الذات والعالم، فتطور علاقة الانسان ومعايشته للمكان، والتطبع بآثاره، وصفاته، جعلت تلك العلاقة خارج سيطرة الانسان وشعوره، أي أن صفات المكان تظهر على الانسان بطريقة اللاوعي(باشلار، 1984، ص. 88).

انطلاقا مما تقدّم يمكن ملاحظة العلاقة الأولية ما بين المكان والشخصية والتفاعل الحاصل بوصفها كيانا سرديًا، كون المكان يمثل أحد أهم عناصر التكوين في النصوص السردية، وبوصفه فاعلًا سرديًا يحمل أبعادا اجتماعية ونفسية ورمزية، وفي الوقت نفسه تغدو الشخصية بوصفها عنصرا ديناميكيا انعكاسا للصراع بين الأماكن التي تتفاعل فيها، لتنشأ ظواهر فنية ونفسية مميزة في انقسام الشخصية ما بين مكانين، هما التنافر والالتقاء.

تتجسد العلاقة ما بين الشخصية والمكان بصور متعددة، تعكسها طبيعة الظروف والأحوال التي تعيشها الشخصية، فهي الحامل الفعلي للفعل الدرامي، والمكان هو الحاضن لذلك الفعل، ويبرز التنافر حينما تجد الشخصية نفسها في بيئة لا تنتمي إليها نفسيًا أو ثقافيًا، يقابل ذلك كله التوادد الذي هو بمثابة علاقة انتماء، تتجلى في الارتباط العاطفي والثقافي بالمكان.

إن اهتمام السرديات المعاصرة الكبير بالشخصية، يأتي من كونها محور القضية السردية، وربما هو ما يسوّغ اهتمام تودوروف بالشخصية وتأكيده أهمية "حظوظها البالغة بوصفها أحد أوجه القيم الدلالية والفنية في السرد (تودوروف، 2005، ص. 200).

وتأسيساً على ذلك، ينبغي الأخذ بالحسبان اختلاف أنماط العلاقة بين الشخصية والمكان، فالشخصية المنتمية للمكان، التي لا تجد فيه ما يسوّغ التنافر، ترى فيه امتدادًا لكيانها، ويمثل لها مكانا حميمًا، آمنًا، مألوفًا، على العكس من الشخصية المتنافرة وإياه، فهي تشعر بالغربة أو العزلة أو الطرد، وعندئذ يتحول المكان إلى مكان خانق وعدائي، يمثل منطلقاً للرفض والصدمات النفسية والاجتماعية.

وينبغي التأكيد على أن تداخل الشخصية مع المكونات الحكائية الأخرى في بناء النص، يمكنها من انتاج سرد يحظى بقبول الآخر، ولذلك يمكن القول إن: مدلول الشخصية لا يتشكل فقط من خلال مدلولها أو قيمتها، أو من خلال موقعها داخل العمل السردي (فعلها)، حسب مفهوم " دي سوسير"، ولكن– أيضا– من خلال شبكة علائقية تنسجها مع المكان بوصفه أبرز العلاقات السردية، فالمكان بعد تلك المعادلة يكون هو الحاضن للعملية السردية وهيكلها البنائي، أما الشخصية فهي أحد أعمدة النص السردي، وهي القناع الذي يختبئ خلفه الكاتب، ومن خلاله يعكس الواقع المعاش وينقده، لكن مع ترابط حاد بين الزمان والمكان، فلا مكان من دون زمان، ولا زمان بدون زمان ، بل هما وحدة واحدة يبنى بها العمل السردي(بختين، 1990، ص. 198).

إسماعيل سكران: المسار الحياتي والتكوّن الإبداعي

ولد القاص والروائي إسماعيل سكران ضاحي في محافظة واسط في العام 1949, وحصل في العام 1987 على شهادة البكالوريوس في علم النفس التربوي من الجامعة المستنصرية، بدأ نشاطه الأدبي في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، وما يزال مواظباً على القراءة والكتابة حتى وقتنا الحاضر.

بدأ الكاتب رحلته السردية متأثراً بموجة التجريب في الستينات، إذ تعلّم من محمد خضير وأحمد خلف وعبد الرحمن مجيد وعبد الستار ناصر وغيرهم فنون الكتابة وأسرارها (سكران، 2025)، حظي نتاجه السردي بعديد من الدراسات النقدية من قبل النقاد، كالدكتور فاضل ثامر، والناقد عقيل مهدي، والناقد الدكتور جمال العتابي، والناقد علوان سلمان، والناقد يوسف عبود.

صدرت للكاتب إسماعيل سكران في العام 1976 أول مجموعة قصصية بعنوان (النثار)، لكنه توقف بعدها عن الكتابة بعدما اندلعت الحرب العراقية الإيرانية، لإيمانه بأنّ الثقافة تحولت حين ذاك إلى نشاط تعبوي لخدمة أهداف النظام السياسي (سكران، 2025)، لكن بعد انهيار النظام السابق في العام 2003 عاد نشاط الكاتب الإبداعي إلى الواجهة، بعدما أفاد من الخزين القصصي الذي ادخرته ذاكرته طوال المدة المنصرمة.

شارك الكاتب في العشرات من المهرجانات الأدبية، ونال العديد من الجوائز التقديرية، وحصل على الجائزة الأولى في مسابقة القصة التي جرت في العام (1986)، وحصل أيضاً على شهادات تقديرية وأوسمة، صادرة عن مؤسسات ثقافية متنوعة.

للكاتب ثماني مجموعات قصصية، وهي " النثار التي صدرت في العام 1977، ورفات الملائكة 2001، ومدينة الرخام 2008، وقادمون فجراً 2008، والأرنب البري– قصص مترجمة 2008، والبحيرة الخالدة وهي عبارة عن قصص أمريكية معاصرة – مترجمة 2012، وزهرة اللؤلؤ 2014.

وبعدها كتب في الرواية وصدرت له ثماني روايات :جثث بلا أسماء 2015، وهزار 2016 وفردوس أمي القديم 2017 ورواية معزوفة الخراب 2018، ومصحة الوادي 2020، ودخان المرافئ 2021، ونزلاء في محيط الأخضر 2023، كما قام بترجمة بعض المجاميع القصصية عن الانكليزية، منها " البحيرة الخالدة ", وهي قصص أمريكية معاصرة لمجموعة من الكتّاب الأمريكان، فضلاً عن ترجمته للمجموعة القصصية " آدم ذات ظهيرة" للكاتب الايطالي إيتالو كالفيتو، وترجمته مجموعتين قصصية للأطفال هما "الأرنب البري " و" الدب الثلجي".

المحور الثاني:

أماكن التنافر والانتماء: الماهية والمضمون.

يمثّل المكان في النص السردي عنصراً بنيوياً فاعلا لا يقلُّ قيمة عن بقية العناصر السردية الأخرى من شخصية أو حدث أو غيرهما، إذ لا يمكن للعمل السردي أن يتحقق إلا في سياق مكاني يكسبه معنى وملمحاً دلاليا مغايراً، فالمكان هو مكون دلالي ورمزي يمثل بشكل أو بآخر رؤية العالم للنص، تتمظهر فيه فاعلية الشخصية واتجاهاتها النفسية والمادية.

ووفق هذا الفهم تتشكل البنية المكانية في الخطاب السردي من خلال صورتين متقابلتين: الأولى منهما صورة مكان الانتماء الذي يكسب الشخصية شعورا بالهوية والألفة، أما الصورة الأخرى فإنها تتمثل بصورة التنافر أو اللا انتماء الذي يحقق إحساسًا بالغربة والانفصال، فالمكان في الأدب يتخذ أشكالاً متعددة، ويتضمن معاني مختلفة، ويتحول في بعض الأحيان إلى هدف

للعمل، كونه يشكل جزءاً أساسياً من بنية النص السردي، فضلا عن ذلك فهو يعد عنصراً فاعلا من عناصر الفضاء السردي.

وما يميز المكان أو توظيفه داخل النص السردي أنه يقع بين زاويتين هما: زاوية التشكيل، وزاوية التأويل، ومن الواضح أن الزاوية الأولى تتشكل وفقاً لرؤية سردية يتحكم فيها الخيال، ويمنحها بعداً تأثيرياً جمالياً، فيما يكون لأحاسيس المتلقي ورؤيته الذوقية وأسسه النقدية أثر في صياغة تجربة الكاتب ضمن الزاوية الثانية.

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ لكلِّ إنسان مكانًا خاصًّا يمنحُه الإحساس بالانتماء والوجود، ويوقظ شعور الحنين في نفسه؛ كلّما عاش شعوراً بالاغتراب والمفارقة، من هذه الزاوية – ربما– شكّل المكان لدى الأدباء عنصرا من عناصر تشكيلهم الإبداعي، ونال نصيبا وافرا من الذيوع في نتاجاتهم، وصار اتّصالهم به سمةً لافتةً للنّظر، ومع تَقَدُّم الزّمَن صار للمكان أبعاد جديدة مختلفة باختلاف البيئة والتّقاليد والأعراف عن الأبعاد التّقليديّة الّتي ألفها الأديب في القديم، وهذا يحيلنا في المحصّلة الأخيرة إلى وصف العلاقة بينه وبين والمكانِ علاقةً تلازميّةً حميميّة، تخضع للتّجربة الإبداعية الّتي يمرُّ بها الكاتب نفسه ؛ ليكون المكان فيها حاضرا ومألوفا لديه، وله خاصيّة مميّزة ، ونصيب وافر من الاهتمامِ ، يجعل حضورَه طاغيا في منجزه الإبداعي.

وبعدما نجح الكتّاب في عقد علاقة تبادلية بينهم وبين الشخصية التي تمارس قوتها باتجاه العاطفة والدعة مرة، والتنافر والترك مرة أخرى، صار تميز المكان بقدرته على إثارة الشجون والذكريات، ومشاعر مختلطة من الفرح، والحزن الدفين، ولهذا يمكنه تحقيق بنية فوقية، وفضاء يسهم في بناء السرد بشكل أكثر اتساعًا، وبذلك يستمر مؤثرًا ومنظمًا لإيقاع السرد.

لكن – من الملاحظ– أن هذا التأثير المكاني لا يستمر بشكل دائم في المنحى ذاته، وهو ليس صفة لصيقة له، وإنما يتغير حسب ظروف المكان وتنقلاته، وربما تصل العلاقة من حالة انتماء إلى حالة رفض، وهو ما يسميه علم التحليل النفسي بالاغتراب (ينظر: يقطين، 1980، ص. 140)، وهي حالة لها عمقها وأوجاعها، ومشاعرها المرهقة، التي تؤدي بصاحبها إلى الانزواء، والانغلاق، وربما إلى العزلة، والانتحار.

ومن الملاحظ أن أماكن الانتماء تشعر الإنسان بالاستقرار النفسي والهوياتي، ويعبّر بوساطتها عن جذورها، وذاكرتها، وأمانها الداخلي، وهذا أمر طبيعي؛ فالمكان في السرد هو كيان رمزي ودلالي، يتداخل مع مجموعة من العناصر ليُنتج شبكة معقدة من المعاني، التي تدل على الذاكرة والتأريخ والشحنات الرمزية.

أماكن الانتماء

هي الأماكن التي تلجأ إليها الشخصية بديلاً عن مكان التنافر، وهي تمثل أماكن للراحة والدعة والأمل والتصالح، ومن مصاديقها العودة إلى البيت الأول والمدينة، وغير ذلك من الأماكن، ما يعني أن ملامح الشخصية تتشكّل من خلال انتمائها المكاني، ووقتها يغدو المكان مرآةً لوجدانها ووعائها الأول لهويتها، فالشعور بالانتماء له مرتبط بتكوين ذاكرة جمعية وفردية، تسهم في تعزيز ثبات الشخصية أو تشتتها.

وعلى المستوى الإجرائي، كلما توطدت علاقة الشخصية بمكانها الأصلي، كلما ازداد وضوح سماتها النفسية وتماسكها الداخلي، فهي تشعر بالأمان حينما تتجذر في مكانها، بينما يعكس انتماء الشخصية للمكان نوعاً من الولاء العاطفي، الذي يتحول في لحظات الأزمات إلى صراع داخلي بين البقاء والمغادرة، فيما يولد الانفصال عنه شعورًا بالخسارة والاغتراب (عزام، 1996، ص130)، ومن هذا المنطلق تنوعت أماكن الانتماء في قصص " اختفاء" لإسماعيل سكران إلى أنواع مختلفة، وفقا لسياقها الذي

وردت فيه، وهي بحسب الآتي:

المدينة:

تعدُّ مدينة بيروت الشهيرة بجمال أزقتها وتأريخها الضارب في أعماق التاريخ واحدة من أماكن

الانتماء التي تعاملت معها الشخصيات التي وظّفها القاص إسماعيل سكران في قصصه، ومن الملاحظ أن أغلب تلك الشخصيات تعاطت مع بيروت بوصفها واحدة من الأماكن المتسعة والمنفتحة على العالم، وعلاقات الاتصال فيها متداخلة مع بعضها البعض، فبيروت من المدن الجميلة التي تشعر الشخصية بالطمأنينة والاستقرار، وتمنحها دلالات تعبيرية في استيعاب العلاقات الانسانية بطابع الألفة.

ويبدو أن تلك الشخصيات وجدت في بيروت ما يدل على إزالة القيود، ويحوّل دون محدودية العلاقات والأواصر، واشتداد علاقة الانسان بمحيطه وانفتاحه على مجتمعه.

من هذه الزاوية غدت بيروت في كثير من قصص إسماعيل سكران فضاءً للألفة والسكينة، تستعيد فيه الشخصية شعورها بالانتماء إلى محيطها، وحضور دال يرسّخ علاقة الذات بعالمها، وهو ذات ما أشار إليه باشلار في نظرية المكان، وفي بيروت يقول القاص إسماعيل سكران" **كان الظلام قد حلَّ وأنا ما زلت أفتش بحثا عن شارع المقدسي، بعد أن ترجلت من سيارة الاجرة التي اقلتني من منطقة الروشة، اقطن في فندق هاوي استغرق ذلك البحث مني وقتا طويلا مع انني نزلت تقريبا عند مكان اعرفه لكن المنطقة تحديدا التي أبحث عنها تعرضت إلى عدة عمليات تحديث طمست معالمها القديمة المثبتة في ذاكرتي والتي احفظها عن ظهر قلب بسبب تكرار حضوري اليها عدة مرات وفي النهاية اهتديت إلى شارعي وكان عليَّ بعد ذلك أن أجد مكاني المفضل والذي يقع على الجهة اليسرى من ذلك الشارع ويدعي ستاد بيروت**" (سكران، 2022، ص. 5).

ويلاحظ من خلال القراءة النقدية للنص أن علاقة الشخصيات السردية بالمكان تنطلق من سلوكيات تلك الشخصيات وأفعالها وعواطفها، التي يبدو عليها التأثير والتأثر بالبيئة، والمدة الزمنية التي تدور فيها أحداث القصة، إذ تؤثر تلك الإرهاصات المكانية في تجارب وقرارات الشخصية، وبالسياق التأريخي والجغرافي للمكان، وكل ذلك يهدف إلى تعزيز مصداقية وواقعية السرد بشكل عام.

تختلف انعكاسات الأماكن بين المرغوبة والمرفوضة على الشخصية بشكل مباشر، وتتحدث تجليات ذلك الانعكاس من خلال تعاطي الشخصية مع هذا المكان أو ذاك، فاختيار المكان وتهيئته؛ يمثلان جزءا من النفس البشرية ، وكلما كان المكان موحشا للشخصية ، كلما اختلفت الشخصية في التعاطي معه، فحب المكان ورغبة العيش فيه؛ هو الذي يحدد طبيعة العلاقة بينه وبين الشخصية التي تبحث عن تحقيق مطالبها ورغباتها فيه، وفي حالة افتقار هذا الجانب يصبح من الطبيعي أن تبحث الشخصية عما تريده في مكان آخر، ومن ثم يحصل الانفصال عن المكان المركزي والاتصال بمحيط جديد .

من هذه الزاوية يمكن تبرير حالتي الألفة والدعة اللذين أشار اليهما القاص، يوم وجدت الشخصية نفسها في حالة استرخاء ، وتنعم بعيش في مدينة طالما احبتها ، فيقول "عند الساعة الحادية عشر ليلا غادرت (ستاد بيروت) بعد أن صافحت مودعا صديقتي الجديدة (إليانا) لم انقطع يوما من ارتياد ذلك البار، وعلى مدى أسبوع استمرت لقاءاتنا أنا وإليانا حتى موعد الإغلاق عند الثانية عشرة ،حيث تترك إليانا مهمة إغلاق البار عادة لنادلها المساعد، فنمضي معا أحيانا سيرًا على الاقدام في شارع

الحمرة، وسط سكون مطبق إلاّ من بعض الأصوات الناعمة التي تتسلل من علب الليل المنتشرة في فروع ذلك الشارع الهائل "(سكران، 2022، ص7)، وبذلك تجد الشخصية نفسها وهي في منأى عن القلق والاضطراب، وعندئذ يتحوّل المكان المرغوب إلى حضن دافئ ، يخفف ثقل النفس ويبعث السكينة في أعماقها.

الكنيسة

تمثل الكنيسة فضاءً مكانياً يعبّر بشكل وآخر عن انتماء الشخصية القصصية في بعض النصوص، على الأقل من الناحية الوجدانية والروحية، فهي مكان يتجاوز الحدود المادية ليغدو ملاذًا للذات المتألمة، ومرآة تعكس الصراعات الداخلية التي تعيشها، ويمكن النظر اليها على أنها فضاء دلالي يرمز إلى الأمان الروحي، والبحث عن المعنى.

وترتبط مثل هذه الأماكن في السرد بمراحل مفصلية في تطوّر الشخصية، فهي تعود إليها حين تضيق سبل الحياة، أو حين تسعى إلى فهم أعمق لما تمرّ به من تجارب وجودية، وبالتالي، فإنّ الانتماء للكنيسة عند بعض المرتادين، لما تمثّل من مكان ديني يعكس حالة من الارتباط بالهوية الدينية والثقافية، ويُبرز جانبًا إنسانيًا حساسًا في الشخصية، يتمثل في توقها إلى الطمأنينة والاستقرار النفسي في عالم مضطرب.

ومن مصاديق تلك العلاقة الصميمة بين الشخصية والمكان، ما أورده القاص في قصصه عن أماكن الانتماء التي ارتادتها شخصياته، ما يعزز قيمة تلك الأماكن والدور الذي تمارسه في تفعيل العلاقات الاجتماعية، فمهما تعرضت الشخصية إلى انعطافات في التعاطي مع مختلف القضايا؛ كلما تولدت حاجتها في البحث عن أماكن توفر لها ما ينسيها انعكاسات تلك التداعيات، ومن قبيل تلك الأماكن الكنيسة التي يقول عنها الكاتب "ارتياد مكاني المفضل حيث توجد صديقتي "إليانا" التي اقترحت عليه ذات ليلة أن تصحبني معها إلى كنيسة "الأنبا بولص الانجيلية" حيث سيقام هناك قداس يوم القيامة المجيد وهي فرصة لي كما قالت للتبرك وطلب النذر للخلاص مما أعانيه من مرض والآم العصب الخامس" (سكران، 2022، ص. 8).

وبذلك يتضح تفاعل الشخصيات مع محيطها المكاني، وكيف يؤثر الأخير في تصرفاتها واختياراتها، فالمكان عنصر فني وأساسي يسهم في إثراء النص، وخلق الرمزية، ما يجعل الشخصية تعيش تجربته بشكل أعمق.

انطلاقًا مما تم دراسته، يمكن القول: إن الشعور بالانتماء إلى المكان يشكّل حاجة جوهرية في بناء الإنسان، إذ تعكس الحاجة النفسية للعيش في فضاءات تمنح الفرد شعورًا بالانتماء رغبةً أساسيةً ومؤثرة في تقديره لذاته. من خلال هذا الانتماء يعي الفرد قيمته داخل المجتمع، ويستشعر دور المجتمع في الاعتراف به. وعلى العكس، فإن غياب الانتماء يولّد شعورًا بالغربة يعيشه البعض، ويضعف من إنجازاتهم أمام أنفسهم والآخرين، لذلك يمثل مكان الانتماء خلاصة التفاعل بين الإنسان ومجتمعه، ويحمل، شأنه شأن أي إنتاج اجتماعي آخر، جزءًا من أخلاقية ساكنيه، وأفكارهم ووعيهم (شاهين، 2002، ص. 112).

من هذه الزاوية يسوّغ حرص الكتّاب على بذل قصارى جهودهم في وصف وتأثيث المكان ودور الشخصية فيه، فوصف دور الشخصية في أماكن الانتماء ما هي إلا محاولة لتجسيد مشهد من العالم الخارجي في لوحة مصنوعة من الكلمات، والكاتب عندما يصف، لا يصف واقعاً مجرداً، ولكنه واقع مشكّل تشكيلاً فنياً (أحمد، 1985، ص. 55).

وفي نص قصصي آخر، يعرض القاص إسماعيل سكران رحلة الشخصية داخل الكنيسة، مستحضراً المكان كفضاء للانتماء، ليظل موضوع الانتماء والعلاقة بالأرض متأرجحًا بين صعود وهبوط، مسلطًا الضوء على العوامل النفسية والدلالية التي تجعل

من هذا المكان محوراً شعورياً يمدُّ الشخصية بالانتماء، كما يتضح ذلك في قوله:"جلست بقرب إليانا، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أجلس فيها تحت سقف كنيسة، كنت محرجا تحت وطأة أجواء الرهبة والقداسة، لذا حاولت أن أكون طبيعيا في نظر صديقتي، وأن لا أسبب لها إحراجا، أو أن يعكر وجودي صفاء اللحظات القدسية التي تحياها اليانا ... كنت استمتع بخشوع إلى القس وهو يرتل قائلا" اذهبي سريعا قولي لتلاميذه أنه قد قام من الأموات، قام بعد انتهاء يوم السبت" (سكران، 2022، ص. 9).

ومن الملاحظ أن الكنيسة هنا ليست مكانا عابرًا فحسب، بل هي مسرح لتفاعل الشخصيتين، واختبار قدرة السارد على التفاعل في مكان آخر، يضفي عليه احترامه واحترام قدسيته، ويدمج بين ثقافة إليانا وثقافة الراوي، مما يعطي احساسًا عابرًا بالانتماء، رغم اختلاف المرجعيات.

الأماكن العامة: الحانة (البار)

في أكثر من نص قصصي يسعى الكاتب إلى تقديم صورة دقيقة لتجربة شخصية روتينية، جاعلا من "البار" مركزًا دلاليًا لمكان الانتماء المؤقت للشخصية، فهذا المكان يمثل لها مساحة استراحة نفسية، إذ يذهب إليه ليستمتع على أنغام أم كلثوم، وهو فعل انغماس في عالم جمالي يخفف من رتابة الحياة، لكنه مع كل ذلك يعكس عزلة الشخصية وانكفاءها نحو ذاتها، وذلك يتضح حتى مع الدلالة الزمنية للمكان، فارتباط الذهاب إلى البار بما يمثل من مصداق مكاني بوقت المساء، يعزز فكرة الطقس اليومي، إذ يصبح جزءًا من دورة الحياة المتكررة ، وجسرًا نحو ذاكرة جماعية أوسع من الحاضر المباشر.

وعلى المستوى الإجرائي يبقى " البار" بما يمثل من مكان انتماء، ليس مجرد فضاء لتناول المسكرات أو الاستراحة، بل هو مكان انتماء شعوري للشخصية، يحقق لها لحظة هدوء وانفصال عن صخب الحياة وهمومها، ويرسّخ إحساسها بالرتابة والانغلاق، وعن ذلك يقول الكاتب " وعند المساء يودع الساحة ليدلف في بار النخيل ليسترخي هناك على أنغام أغنية لأم كلثوم ثم يعود إلى غرفته في فندق قرطاج لينام وحيدا، ليبدأ صبيحة يوم جديد يشبه اليوم الذي سبقه، حتى يجد نفسه ذات يوم وقد وصل إلى سن التقاعد" (سكران، 2022، ص. 13).

وفي نص مماثل يعيد القاص توظيف مكان الانتماء" البار" كمكان روتيني للشخصية، يسهم بمنح الشخصية لحظات مؤقتة من الراحة والانفصال عن العالم الخارجي وتناسي الهموم، وهنا يمكن الادعاء بأن الكاتب أضفى على النص مسحة من الحزن الخفي، حتى وإن كانت الشخصية في مكانها التي تريد ، ففي قصة غابة الصنوبر لا يمثل المكان للشخصية مجرد خلفية، بل هو مكان التقاء يمنحها مساحة لاختبار نفسها في عالم جديد، عالم تدخل إليه بدافع غريزي، لتجد فيه ما لم تجده في الشارع أو المدينة: الهدوء، والغموض، والإغراء بالتجربة ، وكأن المكان يتجلى كرمز لحدٍّ فاصل بين حياة سابقة مضطربة، وتجربة وجودية جديدة، لم تتضح نتائجها بعد، فيقول " كان يمشي بلا هدى، تقوده غريزته نحو أكثر الأماكن أمانًا في تلك المدينة ، توقف هناك أمام أحدى البنايات الحمراء، دفع الباب الموارب ودخل إلى قاعة توزع على بعض موائدها الزبائن، شابان هناك وفتاة هنا وحيدة ، تنفث دخان سكارتها، وفتاة أخرى تحتسي كأسا من الشراب الحاد، اعصابه متوترة فقد كانت تلك الليلة بالنسبة إليه ممارسة تجريبية" (سكران، 2022، ص. 42).

ويتضح جليًا تأثير المكان على الشخصية من زوايا عدة، فالمكان بوصفه انعكاسًا لحالة الشخصية يظهر وكأنه يكشف عن ضياع داخلي "كان يمشي بلا هدى" لكن ذلك الضياع تتبعه "غريزته" وليس إرادته، ما يعني أن الشخصية كانت في حالة هروب

أو تيه نفسي.

وعلى الرغم من أن المكان يبدو "عادياً" أو حتى "بارداً اجتماعياً"، إلا أن الشخصية تدخل إليه وهي في توتر شديد وتردد داخلي، وكأن دخولها للمكان هو اختبار للذات أو عبور لحدود جديدة، وانطلاقا من هذا الفهم التحليلي يمكن القول: إن النص السردي المقدم يعكس مشهداً قصصياً مكثفاً، تتقاطع فيه حالة نفسية قلقة مع مكان له طابع خاص، مما يخلق بنية رمزية مؤثرة.

الساحة

تمثل الساحات العامة مكانًا مهمًا من حيث الانتماء والهوية المجتمعية، فهي ليست مجرد أماكن مفتوحة للتجمعات، بل هي فضاءات حيوية تحمل معاني ثقافية وجغرافية، وتمثل بعدا تاريخيا لمرتاديها وجزءا من الذاكرة المجتمعية، وهي بمثابة مراكز للتواصل الاجتماعي والتفاعل بين أفراد المجتمع، وفي مثل تلك الأماكن يدرك القاص أن بإمكان الأشخاص التعبير عن أنفسهم، وتبادل الأفكار، والشعور بالانتماء إلى جماعة أو هوية مشتركة.

إن إجراءات الكتابة السردية تفضي إلى اثبات هوية الذات، بيد أن اثبات الهوية في التخيل القصصي يكشف حقيقة صفة أو أكثر يمكن من خلالها تميزه وتحديد انتماءه العام والخاص، ومن مصاديق ذلك ما ورد في قول القاص إسماعيل سكران "إنه لا يفعل سوى رفع تقريره الأمني اليومي إلى دائرته حيث يدون فيه كل مشاهداته فيها الصغيرة والكبيرة، كل وصف له أهميته الأمنية ففيها يلتقي الكردي القادم من اقليم كردستان مع الجنوبي القادم من البصرة أو ميسان كما يلتقي السني مع الشيعي ومع المسيحي وتلك الملامح ربما تشكل لدى السلطات نوعا هاما من أنواع التعايش السلمي، فهم يتناولون طعامهم في نفس المطعم وينامون في نفس فنادق الساحة ويتبادلون الأحاديث العامة والخاصة ، أرقام هواتفهم وهي خصائص تمثل تجسيدا لمبدأ السلم المجتمعي " (سكران، 2022، ص. 13).

ويبدو أن الظروف والأحوال التي عاشها الكاتب إسماعيل سكران وتجربته في التنقل الفردي الدائم وعيشه مع الفقراء في الأماكن البسيطة، أتاحت له أن يكون قريبا من الجماعة متجاوزا للذات، ولذلك أبدع في وصف مختلف أماكن الانتماء، فللوصف عنده وظائف متعددة، منها التصوير الفني الجميل للمكان، وتمجيد الشخصية التي ستخترق المكان، فمن خلال وصف المكان يتم التمهيد لمزاج الشخصية وطبعها، وبذلك يصبح المكان ممثلًا لتعبيرات مجازية عن الشخصية.

ومن الطبيعي أن تمثل أماكن الانتماء فضاءات مكانية تلجأ اليها الشخصية بديلا عن أماكن التنافر، ففيها تولد وتنمو الشخصيات عبر جدل دائم بين الواحد والكل، وبين ما هو مرغوب ومرفوض، وتتطور عبر الحفاظ على التعدّد الغني داخلها.

فمثل هذه الأماكن هي مكونات فاعلة في تكوين الشخصية، وهي التي تحدد مواقفها، وصراعاتها، وتحولاتها، فقد تتشكل الشخصيات السردية من علاقتها بالمكان، سواء من خلال الانتماء له، أو التمرد عليه، أو الحنين إليه، أو فقدانه، وهذا يبرر نشأة بعض تلك الشخصيات في ظل ارتباط عاطفي يجعل منها أكثر توازنًا نفسيًا، ولذلك صار المكان من أكثر العناصر تأثيرًا في تطور الشخصية وفقدان مكان انتمائها، الذي يؤدي في النهاية إلى تغيّر جوهري في ملامحها النفسية والفكرية.

الشارع

في قصة "**رهاب**" يصوّر القاص معاناة الشخصية تحت وطأة الواقع المعيشي القاسي، ويكشف عن مدى التصاقها بالمكان الذي وجدت فيه ملاذًا يلبّي حاجاتها اليومية، ويؤكد الكاتب أن المكان في هذا النص القصصي لا يؤدي دور الإطار الجامد للأحداث

فحسب، بل يتحول إلى عنصر نفسي وروحي فاعل يسهم في تشكيل سلوك الشخصية وتحديد توجهاتها، فـ"العطفة"، وهي المساحة الواقعة عند مدخل مطعم المرأة البدينة، تغدو في وعي الشخصية مركزًا وجوديًا يمنحها إحساسًا مؤقتًا بالتوازن والاستقرار وسط عالم يعجّ بالتوتر والفوضى، ليتجلى هذا الارتباط العميق بالمكان من خلال تركيز الشخصية على مفردات ذات دلالة انتمائية واضحة، مثل قولها "**ركني الأزلي**"، "أدافع عنه"، "أعود إليه"، بما يعكس شعورها بالتماهي مع المكان، بوصفه جزءًا من كيانها وملاذها النفسي، وكأنها تشير إلى شعور داخلي بعدم الأمان خارج هذا المكان، وتعلق مرضي أو قهري به نتيجة ضغوط الحياة، فالشخصية لا تتعامل مع مكان الانتماء كمجرد نقطة جغرافية، بل كمأوى نفسي وسلوكي يلجأ إليه.

وفي النتيجة يمكن القول إن الكاتب وظّف المكان لتمثيل علاقة الإنسان بمحيطه كآلية للبقاء النفسي، والهروب الهادئ من صخب الحياة، ومن ذلك قوله "**لقد باتت تلك العطفة النادرة من واجهة المطعم الصغير ركني الأزلي الذي أدافع عنه يوميا ضمن حالات الكر والفر، ابتعد عنه وأعود إليه عندما تهدأ فورة المعركة، ويخمد غضب البدينة لانشغالها بتلبية طلبات زبائنها الجنود، تلك الرقعة الصغيرة جدا من العالم أصبحت تشكل بالنسبة لي أكثر من مجرد مكان وحسب، فأنا أمضي فيه كل النهار وجزء من المساء ,, (سكران**، 2022، ص29).

وهكذا يظهر المكان في نتاج القاص اسماعيل سكران بوصفه عنصرًا وجوديًا لا ينفصل عن الشخصية، إذ يشكّل ملاذها النفسي وشرط استمرارها في مواجهة قسوة الواقع، كما يغدو الارتباط بمكان الانتماء في السرد تعبيرًا عن حاجة عميقة إلى الاستقرار والهروب من انعكاسات عالم مضطرب.

أماكن التنافر

تمثل قصص "اختفاء" محطة بارزة في مسيرة إسماعيل سكران السردية، حيث تتشكل الشخصيات غالبا من خلال علاقتها بالمكان وتأثرها به، كأن للمكان سلطة وجودية تطبع على الإنسان ألوانًا متناقضة من المشاعر، تتراوح بين القلق والتطلّع، والخوف والأمل في الخلاص، فتتحول البيئة المحيطة إلى مرآة للنفس وتجسيد للتجربة الإنسانية.

ومن الملاحظ تجلي حضور المكان في لغة القاص على نحو يتفاعل مع الشخصية تارة، ويتنافر معها تارة أخرى، بعد أن تتسلل تلك التقنيات في تضاعيف بنية السرد، فالمكان وتفاعله مع الشخصية بهذا الحضور الطاغي، بمثل وظيفة بنائية وموضوعية تضفي على الحدث حالات استحضار مهمة، بعدما يحضر ببعديه الاجتماعي والتأريخي، كجزء من التركيبة التي تُعين على فهم نبرة الجدل بين الشخوص في المكان الواحد.

ما يعني أن مثل هذه الأعمال القصصية لا تمثّل إضافة نوعية إلى منجز إسماعيل سكران السردي فحسب، بل تسهم بفاعلية في إثراء مسيرة القصة العراقية الحديثة، التي جعلت من التعبير عن هموم الفرد ضمن سياقه الاجتماعي والتأريخي محورًا أساسيًا لها.

علاوة على ذلك فقد مثلّت أماكن الانتماء في نتاج القاص قيمة دلالية وجمالية عالية، إذ شكّلت فضاءات حاضنة للذات، ومعادلاً شعوريًا للأمان والاستقرار، الأمر الذي جعلها محطّ دراسة وتمحيص نقدي واسع، ونالت أماكن التنافر – أيضا– اهتمامًا مماثلًا، إذ حضرت بقوة في مجموعته القصصية "اختفاء"، بوصفها فضاءات مضادة تكشف اغتراب الشخصية وتوتر علاقتها بالعالم، ويمكن رصدها على النحو الآتي:

الخيام

مع أن ظهور " الخيام" عادة ما توصف بكونها مكاناً للتنافر للاحتجاج والمقاومة والكرامة الجماعية، لكن مع ذلك فالنص القصصي للكاتب يصوّرها بوضع موحش ومتناقض "تلك الخيام تبدو هذه الأيام شبه خالية من الثوار" فهي خيام فارغة، ساكنة، متروكة جزئيًا، وهو ما يخلق شعورًا بالتنافر بين دلالتها السابقة الزخم الثوري وحالتها الحالية (الخواء والتهديد).

ومن الواضح إسهام مكان التنافر " الخيام" الخالية من الثوار بخلق تنافر زماني ومكاني، فالمكان الذي كان يعج بالحياة والنشاط الثوري أصبح الآن ساكنًا، فالخلاء هنا ليس مجرد غياب أجساد، بل غياب رمزي للروح، للحلم الجماعي، فقد تحولت الخيام إلى مكان يعكس التوتر، لا الطمأنينة، فيها يتجاور الشعور بالغياب، والخوف من الهدم، والحنين للحظة ماضية من الوحدة الجماهيرية. وجميع تلك الأوصاف هي بحد ذاتها تدل على مكان يتنافر مع السياق الذي تأسس من أجله، فبدلًا من أن يكون فضاء حرية، أصبح بحاجة للحماية، وهذا التنافر يعكس أزمة في العلاقة بين الإنسان والمكان، وبين الفكرة وتجليها الواقعي، تلك الظاهرة رصدها القاص حينما قال "تلك الخيام تبدو هذه الأيام شبه خالية من الثوار الذين التزموا بأوامر حظر التجوال الوقائي بسبب تفشي وباء كورونا حيث غادروا عائدين إلى منازلهم باستثناء بعض الشباب الذين رابطوا في تلك الخيام لحراستها ومنع تكرار حرقها من قبل القوات الأمنية أو بعض الذيول وخاصة وأنهم قدموا أكثر من سبعمائة شهيد على مذبح الحرية " (سكران، 2022، ص. 68).

المدينة

في بعض النصوص القصصية لإسماعيل سكران، تبرز المدينة في بداياتها بوصفها فضاءً جامعًا يلتقي فيه الشخوص، وتمثل لهم مكانًا للانتماء والألفة، غير أنّ تصاعد الأحداث المؤلمة التي تعيشها الشخصيات داخل هذا الفضاء يسهم في إحداث تحوّل دلالي في وظيفة المكان. فسرعان ما تغدو المدينة كيانًا حيًّا يتأثر بما يعتريه من وقائع قاسية، ويتفاعل مع التحولات النفسية والاجتماعية، ليعكس توتّر المجتمع ومخاوفه، وينقلب من حاضنة للانتماء إلى فضاء للتنافر والاغتراب.

ففي نص قصصي يبرز إقفال مداخل المدينة ومخارجها ليحولها من مكان جغرافي، إلى كائن حي خائف، يغلق على نفسه اتقاء خطر خارجي، فالمكان هنا صار يقدم كمن يعيش حالة رعب جماعي، بل يشارك في حالة الذعر مثل سكانه، فالمكان ينصهر ويتفاعل مع الحدث ويتأثر فيه، فـ" للبيئة المكانيّة أهمّيّة في اكتسابِ السّماتِ الشّخصيّةِ للإنسانِ، فتفاعله مع المكانِ يتركُ عنده أثرًا إيجابيًّا أو سلبيًّا؛ فينعكس ذلك على رؤيتِهِ وتوجّه مساره " (عزام، 1980، ص. 123).

ويبرز تأثر المكان بالأحداث جليًا، فلم يعد "يسمع في أجواء المدينة أية أصوات بشرية أو آلية"

و"دبّ الخرس في أرجاء المدينة „وهو توظيف الصمت المطبق للدلالة على شلل الحياة، وبإبزاء تلك الأحداث وانعكاساتها يتخلى المكان عن وظائفه: لا حركة، لا صوت، لا تفاعل. وهو ما يجعل المدينة أقرب إلى القبر أو المشهد ما بعد الكارثة.

ويمكن للدارس اكتشاف تحول المكان من مكان يشعر فيه الانسان بالأمان، إلى مكان للتهديد، فالمكان الذي يُفترض أن يكون مأوىً وسكناً للناس، تحوّل إلى سجن مغلق بفعل الخوف من "المجهول المتوحش"، هذا التحوُّل الدرامي في وظيفة المكان يكشف مدى تأثير الخوف في إعادة تشكيل الفضاء المكاني والنفسي معًا.

فالمدينة ما عادت الا انعكاسًا نفسيًا تامًّا لمشاعر سكانها: فحين خافوا، خاف المكان؛ وحين سكنوا، سكن المكان من هذه الزاوية

يُلاحظ أن المكان لا يعبّر عن نفسه إلا عبر سلوكياته (إغلاق، خرس، توقف)، تمامًا كما يعكس الإنسان مشاعره من خلال سلوكياته، فيقول القاص" اقفلت مداخل المدينة ومخارجها خوفا من قدوم ذلك المجهول المتوحش الذي لم يره أحد، والذي أرعب الجميع وشل حركة المدينة، فلم يعد يسمع في أجواء المدينة أية أصوات بشرية أو آلية، فلقد دب الخرس في أرجاء المدينة „ (سكران، 2022، ص. 49).

ولأن العلاقة بين الإنسان والمكان تتسم بالتلازم والالتصاق، ولم تقتصر علاقات التأثير والتفاعل والانسجام بينهما على تأثر الإنسان بالمكان فحسب، بل أن المكان يوجد في الإنسان خصائصه وملامحه، وأغلب ما يقوم به الإنسان من نشاطات متنوعة هي في محصلتها صورة من صور انتمائه للمكان.

أمام هذه الظواهر التي لا يمكن نكرانها يجد المرء ذاكرته مليئة بالمواقف والأحداث التي لا يمكن للمرء أن ينساها، بل وتؤثر في كثير من الأحيان في سلوكه المستقبلي مع مختلف الحوادث، ولعل معظم ما يمر في ذاكرة الإنسان يأتي في سياق وضع المكان، إطاراً يمسك بتلك المواقف والذكريات.

وتبرز المدينة في نص قصصي آخر بوصفها ضحية للحرب، وهدفًا ثابتًا للخراب، فالهجمات الجوية تلقي قنابلها على "هياكل المدن المتداعية" ليغدو المكان (المدينة) موضع إصابة وتدمير مستمر، فهو لا يُقدم كفضاء آمن، بل كجسد مهشم، وقيمته تتحول إلى رمز للعنف والدمار والحرب، وهو الذي يدفع الثمن الأكبر، وعندئذ تتحول المدن من مكان انتماء إلى مكان تنافر، بما تمثل من مكان لذاكرة الصراع.

وكثيراً ما يحرص الكاتب على إبراز أحوال الحياة، وهي تلعب دورًا أساسيًا في تصوير معاناة المدينة، وكيف تُحاصر بالضجيج الذي يرمز إلى القلق والتوتر المستمر، وهو ما يسهم بتجلي قيمتها في كونها رمزًا لذاكرة الألم ومكانا للتنافر، ومساحة ممتدة للخراب النفسي والمادي، فيقول " كما كانت تمر في سماء المدينة الطائرات الحربية التي ترمي قنابرها فوق هياكل المدن المتداعية، توقفت الحرب ولم تتوقف القطارات عن اطلاق صفيرها وهي تقترب من محطة وقوفها في وسط المدينة ، بل واصلت ضوضائها في سماء مدينتنا على مدار أعوام اعقبت الحرب" (سكران، 2022، ص. 48).

وعبر القراءة النقدية يُكتشف تأثير" الضوضاء الذي لم يتوقف، ومواصلة القطارات إطلاق صفيرها" وهو ما يعكس حقيقة أن هذه التفاصيل تعبّر عن أن الحرب لم تنتهِ في وعي المدينة، بل حولتها إلى مكان لا يمكن الرضى بقبول العيش فيه، ما يعني أنها ليست مكانًا ثابتًا، بل غدت كائن زمني يتطور ويتدهور ويتذكر.

ويتّضح بجلاء أن المدينة في هذا النص، كما في نصوص أخرى، لا تتجاوز كونها فضاءً سلبياً وندّاً وجودياً، إذ يُسقِط الكاتب عليها إحساسه بالوحدة والأرق والقلق والشعور بالعبثية، فهي تتحول من حيّز عمراني إلى رمز للاغتراب الوجودي، فاقدة للروح، تائهة في الليل، أنوارها خافتة، ومنازلها كالقبور، وفي ذلك يقول الكاتب إسماعيل سكران "تبدو لي المدينة على نحو مغاير كل يوم ، فهي جامدة منازلها كالقبور التي تنطوي على موتى، خاصة في الليل عندما يجفوني النوم، أرى الأنوار الضئيلة وهي تنسل من فتحات النوافذ وفي السماء ثمة نجوم هي الأخرى تبدو لي من بعيد خافتة ، تومض وتختفي ، لا شيء مهم تحتها ، فلم تعد للأشياء قيمتها أو ألقها الأصيل" (سكران، 2022، ص. 50).

وخلاصة لما تقدم يمكن القول إن أماكن التنافر في النصوص التي سبقت دراستها تظهر وهي تعكس نظرة تشاؤمية، فالكاتب يصّورها ككيان ميت أو شبه ميت، منزوع الروح والمعنى. ويتعامل معها بوصفها مكانًا غريبًا لا يمكن العيش فيه بأي شكل من الأشكال، منفصلًا عنه نفسيًا وشعوريًا.

الغابة

تبدو الغابة في نصوص إسماعيل سكران القصصية بوصفها فضاءً متنافراً، يثير في الشخصية مشاعر القلق والخوف من المجهول؛ فهي ليست مكاناً طبيعياً وادعاً أو جميلاً، بل عالمٌ معتم وموحش وغير أليف، تتكاثف فيه مظاهر الرهبة والاضطراب، وتتشكل هذه الأجواء من خلال أصوات حسّية متعددة، مثل (همهمة الخنازير، وأنفاس الأشجار، وفحيح الأفاعي، وزفير الحيوانات)، وكلها تُقدَّم بطريقة إيحائية، وتُجسِّد الخطر الكامن، وتعمّق إحساس الشخصية بالتهديد.

ومن هذا المبدأ فإن مكان التنافر يسهم بخلق حالة من عدم الارتياح، ويهيئ القارئ لتوقع أحداث قد تحمل خطراً أو مواجهة، وهو ما يجسد مفهوم ودلالة مكان التنافر بكل أبعاده النفسية والرمزية، وفي ذلك يقول الكاتب" غابة صنوبر موحشة وواسعة تنطلق منها أثناء الليل أصوات مفزعة همهمة الخنازير البرية، تنفس الأشجار، فحيح الأفاعي، زفير الحيوانات الوحشية النائمة تنعدم الحركة في المدينة الصغيرة" (سكران، 2022، ص. 40).

وفي ضوء ما سبق، يرى الباحث أن الغابة بوصفها مكانًا أدبيًا تُعد من أكثر الفضاءات ثراءً بالرموز والدلالات، إذ حضرت حضورًا لافتًا في الآداب القديمة والحديثة على حدّ سواء، لما تنطوي عليه من طابع غامض وتعدد في المعاني.

الفنادق

تمثل الفنادق في السرد أمكنة مؤقتة تحتضن شخصيات متباينة المصائر، فتتحول إلى فضاءات للغربة والانتظار وتلاقي التجارب الإنسانية، وغالبًا ما تُوظَّف دلاليًا للتعبير عن التحول والعزلة وهشاشة العلاقات في عالم سريع التغيّر، وفي بعض الأحيان تشكل الفنادق بوصفها المكاني في السرد بعداً نفسياً يتفاعل مع وعي الشخصية ومشاعرها، فقد يظهر مكان التنافر كفضاء غير مألوف، يبعث القلق ويعمّق الإحساس بالخوف والاضطراب، وفي قصص اسماعيل سكرن يبرز مكان التنافر "الفندق" وهو يعبّر عن الانكسار النفسي والعزلة الاجتماعية للشخصية، فهو ليس اختياراً حراً للشخصية ، بل نتيجة هروب أو اضطرار "بعد أن ضاق بها العيش في مدينة سكناها"، ما يجعله مكاناً مفروضاً على الشخصية، فتلك الغرفة التي سكنتها الشخصية في الفندق اصبحت تمثل لها سجناً نفسياً، تجسّد العزلة والانفصال عن المكان الأصلي .

وليس هذا فحسب، فالإقامة في الفنادق عادة ما تقترن بـ „الرهاب والقلق"، وهما حالتان نفسيتان ترتبطان بالخوف من المجهول وفقدان السيطرة، وأكثر من ذلك ما تظهره الشخصية من خوف مبالغ فيه من فقدان "المكان الأثير عند ركن المرآب" وهو ما يعكس أن الفندق لم يمنح الأمان المكاني، بل زاد من هشاشة الاستقرار.

وفضلاً عن ذلك فإن حضور "البدينة السمراء التي تنز عرقاً وزيتاً" يضيف بعداً حسياً منفراً، يعمّق شعور الشخصية بالقذارة

المعنوية والمكانية، ويجعل من الفندق فضاءً ملوثاً على المستويين النفسي والحسي، فيقول : "كنت أعيش في غرفة من فندق بائس في منطقة علاوي الحلة بعد أن ضاق بي العيش في مدينتي الملاصقة لبغداد ، كنت مرعوبا على الدوام تستحوذ على كيانه كله حالة من الرهاب والقلق بسبب خوفي من فقدان مكاني الاثير عند ركن المرآب، بسبب تلك البدينة السمراء التي تنز عرقا وزيتا طيلة الموسم الصيفي"(سكران، 2022، ص. 32).

وفي ظل تلك الظروف يمكن القول إن مكان التنافر لا يطرح حلولاً نفسية تُذكر تصب في صالح الشخصية، بل يرسّخ الإحباط ويبقيها في حالة مستمرة من التأهّب النفسي، مما يسهم في خلق مناخ ملائم لتصاعد التوتر الداخلي وربما الوصول إلى الانهيار، إذ تجد الشخصية نفسها محاصَرة بين ماضٍ فقدت فيه الإحساس بالانتماء، وحاضر يكرّس اغترابها المكاني.

ونتيجة لذلك تمثل مثل هذه الاماكن معادلاً للشعور بالانكسار والاغتراب، وهو ما يضغط على الشخصية ويشوّه إحساسها بالأمان، ليحوّل حياتها إلى انتظار قلق داخل مساحة مادية ضيقة وروحياً خانقة.

الخاتمة

يتبيّن من خلال دراسة المكان في مجموعة "اختفاء" للقاص إسماعيل سكران، أنه لا يؤدي وظيفة وصفية أو تزينية فحسب، بل يمثل عنصراً محورياً وبنيوياً ووجودياً فاعلاً في صياغة حركة الشخصيات السردية، وتوجيه مساراتها النفسية والفكرية، ولذلك تبلورت ثنائية أماكن الانتماء وأماكن التنافر بوصفها محورًا دلاليًا أسهم في الكشف عن علاقة معقّدة بين الشخصية والمحيط التي تعيش فيه، قوامها الألفة حينًا، والاغتراب والقلق حينًا آخر.

وأظهرت القراءة النقدية أن أماكن الانتماء، كالمسكن، والمدينة الأليفة، والكنيسة، والساحة، والشارع، تمثّل فضاءات حاضنة للذات، ومعادلاً شعوريًا للأمان والاستقرار، ومرآةً لهوية الشخصية وذاكرتها الفردية والجماعية، في حين كشفت أماكن التنافر، كالمدينة الموحشة، والغابة، والفنادق، والخيام الخالية، هشاشة العلاقة بالمكان، وأظهرت حالات الانكسار النفسي والتوتر الوجودي وفقدان المعنى. وبهذا غدا المكان في سرديات اسماعيل سكران كيانًا حيًا، متحوّلًا، يتأثر بالأحداث ويؤثر فيها، ويتداخل مع وعي الشخصية ليعكس صراعاتها الداخلية ومواقفها من العالم الذي تعيش فيه.

وعليه، فإن هذه الثنائية المكانية لا تعمّق البنية الجمالية للنصوص فحسب، بل تسهم في إثراء الدلالة السردية، فللمكان دور مهم في المساعدة في فهم علاقات الأشياء فيما بينها ، وفيه تظهر آثار تلك الأشياء، ويمثل في بعض الأحيان بؤرة تنبع منها دلالات تزيد الرؤى والعناصر في النص ويمنح التجربة القصصية بعدًا إنسانيًا واجتماعيًا يتقاطع مع أسئلة الهوية والانتماء والاغتراب، وبذلك رسخ إسماعيل سكران حضوره ضمن مسار القصة العراقية الحديثة، بوصفه كاتبًا واعيًا بدور المكان في تفكيك التجربة الإنسانية، وتمثيل قلق الفرد داخل واقعه الاجتماعي والتأريخي.

المصادر والمراجع:

1- أسماء شاهين، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001.

2- إسماعيل سكران، قصص اختفاء، منشورات اتحاد الادباء 2022، ط1.

3- تزفيتان تودوروف، مفاهيم سردية، ترجمة عبد الرحمن مزيان، منشورات الاختلاف، الجزائر.

4- حميد الحمداني، بنية النص السردي (من منظور النّقد الأدبي)، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، آب ١٩٩١.

5- سعيد يقطين، قضايا الرواية العربية الجديدة، الوجود والحدود، دار الأمان، ط1، الرباط، 1980.

6- سيزا قاسم أحمد، بناء الرواية، دار التنوير، بيروت، 1985.

7- شجاع العاني، البناء الفني في الرواية العربية في العراق، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 2012.

8- غاستون باشلار، جماليات المكان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت–لبنان، ط2، 1984.

9- محمد صائب خضير (2023) تقنيات رسم المكان في ديوان الطغرائي. مجلة واسط للعلوم الانسانية، مجلة 19، https://doi.org/10.31185/.Vol19.Iss54.374 .

10- محمد عزام، اتجاهات القصة المعاصرة في المغرب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د ط، دمشق، 1980.

11- محمد عزام، فضاء النص الروائي (مقاربة بنيوية تكوينية في أدب نبيل سليمان)، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية، ط١، ١٩٩٦.

12- مقابلة مع الكاتب في منزله الواقع وسط مدينة الكوت بتأريخ 1/10/ 2024

13- ميخائيل بختين، أشكال الزمان والمكان في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، 1990.

14- ياسين النصير، مدخل إلى النقد المكاني، نينوى للدراسات والنشر، العراق، 2016، ط1.

Sources and References:

1- **Asma Shaheen**, The Aesthetics of Place in the Novels of Jabra Ibrahim Jabra, Arab Institution for Studies and Publishing, Beirut, 2001.

2- **Ismail Sukran**, Stories of Disappearance, Publications of the Union of Writers, 1st ed., 2022.

3- **Tzvetan Todorov**, Narrative Concepts, translated by Abdulrahman Mazyān, Ikhtilaf Publications, Algeria.

4- **Hamid Al-Hamdani**, The Structure of the Narrative Text (From the Perspective of Literary Criticism), Arab Cultural Center for Printing, Publishing and Distribution, Beirut, 1st ed., August 1991.

5- **Saeed Yaqtin**, Issues of the New Arabic Novel: Existence and Boundaries, Dar Al-Aman, 1st ed., Rabat, 1980.

6- **Siza Qasim Ahmed**, The Structure of the Novel, Dar Al-Tanweer, Beirut, 1985.

7- **Shujaa Al-Ani**, The Artistic Structure in the Arabic Novel in Iraq, Dar Al-Shu'un Al-Thaqafiya, Baghdad, 2012.

8- **Gaston Bachelard**, The Poetics of Space, University Foundation for Studies and Publishing, Beirut, 2nd ed., 1984.

9- **Mohammed Saeb Khudair** (2023), "Techniques of Representing Place in Al-Tughra'i's Diwan," Wasit Journal for Human Sciences, Vol. 19. https://doi.org/10.31185/.Vol19.Iss54.374
10- **Mohammed Azzam**, Trends in the Contemporary Short Story in Morocco, Publications of the Arab Writers Union, Damascus, 1980.
11- **Mohammed Azzam**, The Space of the Novelistic Text (A Genetic Structural Approach in the Works of Nabil Suleiman), Dar Al-Hiwar for Publishing and Distribution, Syria, 1st ed., 1996.
12- Interview with the writer at his home in central Kut city, dated October 1, 2024.
13- **Mikhail Bakhtin**, Forms of Time and Chronotope in the Novel, translated by Yusuf Hallāq, Syrian Ministry of Culture Publications, Damascus, 1990.
14- **Yasin Al-Nassir**, An Introduction to Spatial Criticism, Ninawa for Studies and Publishing, Iraq, 1st ed., 2016.